

ذكر ماجريات^(١) أدبيات متعلقة بذكر الروضة

وقال صاحب فخر الدين بن مكاس: كان على شاطئ النيل سرحة كأنها قبة زمرد، أو فسطاط زبرجد، فاقترحت جماعة الأصحاب^(٢)، وبنو الآداب، أن ينظموا^(٣) صورة الحال، بشرط الارتجال، على أسلوب الأرجاني^(٤) في وصف الشمعة:

نمت بأسرار ليل كاد يخفيها وأطلقت قلبها للناس من فيها
والمناوى في فضل^(٥) الوادى:

وقانا نفحة الرمضاء واد سقاء مضاعف الغيث العميم
وحمدة بنت تقى الأندلسية في وصفه:

أباح الدمع أسرارى بواد له فى الحسن آثار بوادى
فقلت: لا تركض خيول الارتجال فى هذا المجال، ولا تستبق بداية الأذهان فى هذا الميدان، ولأن تسمخوا فى الانتظار بليلة، ربما ينجح فى اختياركم الحيلة، فأذعن كلانا إلى ما شاء صاحبه من الاقتراح، فقلت: عند تنفس الصباح:

(١) كذا وردت هذه اللفظة بالنسخ الخطية.

(٢) فى الأصل: للأصحاب.

(٣) فى الأصل: ينظم.

(٤) فى ج: الأرج.

(٥) فى الأصل: فصل.

يا سرحة الشاطئ ^(١) المنساب كثره
حلت عليك عزاليها 1 السحاب إذا
وإن تبسم فيك النوء من جدل
رحماك بالوارف المعهود منك فكم
وكم نزلنا مقيلا منك يا ^(٢) حمى
نظل في فيئك الفضااض في ظلل
يا طيبة ^(٤) بدواء القيظ عالمة
لا صوح 3 الدهر منك الزهر وانجست
عصابة القوم أموا أرض ^(٥) زاهرة
خمائيل الزهر منشأها ومرضعها ^(٦)
فاستمهدت دوحها المخضل وافترشت
قريرة العين بالأنواء باردة الـ

على اليواقيت في أشباه حصباء
نوء الثريا استهلت ذات أنواء
سقاك من كل غيم كل بكاء
لنا بظلك من أهوى وأهواء
الهجير 2 حيث لا مرأى بجرباء ^(٣)
من الغمام يقينا كل ضراء
أنت الشفاء لذى الرمضا من الداء
عليك كل هتون الورق سوداء
تعزى لأكرم أحوال وآباء
ضرع النمرين 4 من نيل وأنواء
نجم الربا ورقت عرشا على الماء
قلب الذى لم تنله غير سراء

(١) في ب، جـ: الوادى.

(٦) فى الأصل: وموضعها.

1 عزاليها: جمع عزلاء، وهى مصب الماء من القرية ونحوها.

2 الهجير: شدة الحر فى منتصف النهار.

3 صوح: يقال صوح النبت ونحوه: يبس حتى تشقق وتنثر.

4 النمرين: مثى نمر، وهو الماء الطيب الناجع فى الرى.

(٣) فى ب، جـ: ما.

(٣) فى الأصل: بجرماء. والجرباء: الأرض المقحوظة لاشيء فيها.

(٤) فى ب، جـ: طبة.

(٥) فى ب، جـ: روض.

مقيل ندمان بل مغنى حمام بل
لها مطارف 2 ظل سجسج 3 فمصيه
قديمه العهد هزتها الصبا فغدت
لا يدرك الطرف أقصاها على كلل
وصوب بلبها الراقى ذرى^(٣) غصن
كقرع ناقوس دبرى على شرف
حلية حين أحييت^(٥) الضلوع على
تهكمت بى فلم تحن^(٦) أضالعها
بديعة الحسن قد حاز^(٨) الجناس لها
وقام عنها لسان الزهر ينشدنا

كناس آرام بل (أقبا 1 ماء)^(١)
فها يعادل^(٢) فيه طيب مشتاء
وهى العجوز تهادى 4 هدى مرهاء 5
حتى تعود له لحظات حولاء
فى حلة من دمشق 6 الريش^(٤) دكناء
مسيح فى سواد الليل دعاء
نار بشجوى بها لا حب لمياء
على الهواء وأحتتها^(٧) على ماء
من المعانى بأفنان وأفناء
للهم كم أرج مابين أرجاء

(١) فى الأصل: أفناء درماء. وفى ب: أقبا درماء.

(٢) ليست فى الأصل، جـ.

(٣) فى ب، جـ: ذى.

(٤) فى ب، جـ: الريح.

(٥) فى الأصل: أحييت. وفى ب: أجتبت.

(٦) فى الأصل: تحسن. وفى ب: تجنى.

(٧) فى الأصل: وأخفقتها. وفى ب: وأحتتها.

(٨) فى ب، جـ: فاز.

1 أقبا: جمع قبو، وهو بناء تحت الأرض تنخفض حرارته فى الصيف.

2 مطارف: جمع مطرف، وهو رداء أو ثوب من خز.

3 سجسج: أى: لا حر ولا برد.

4 تهادى: أى تتهادى بمعنى تتمايل فى مشيتها.

5 مرهاء: المرهاء من النعاج: الشديدة البياض.

6 دمشق: زينة.

وقال:

كم ^(١) صفق الموج ^(٢) من أزهارها طربا
وكم طربت لما أبدته من ملح
وجدت بالتبر من مالى ومن أدبى
كأنها فى جنان الخلد قد كملت
كأن أغصانها لون الرشاق إذا
كأن صمغتها الحمرا بقشرتها ^(٥) الد
كأنها فوق دعص الماء إذ سفحت ^(٦)
مالت على النهر إذ جاش الخريز به
كأنما النهر مرآة وقد عكفت
ذو شاطئ راق غب القطر فهو على
كأنه عند تفريك النسيم له
كأنه شبك من لؤلؤ نظمت

فنقطته بيضاء وصفراء
يصبو لها كل ذى عقل ^(٣) وآراء
فصرت فى كل حال منهما الطائى
حسنا ^(٤) من خضراء لفاء
هصرت ١ أفنانها أعطاف وطفاء 2
كناء قرص على أعكان سمراء
هضابة سح واد رب أفياء
كأنها أذن مالت لإصغاء
عليه تدهش فى حسن ولألاء
نهر الأبله 3 يزي ^(٧) أى إزياء ^(٨)
فرند سيف 4 نضته كف حلاء 5
أو جوهر السن أو تحليل ^(٩) رقشاء 6

(١) ليست فى الأصل.

(٢) فى ج: الزهر.

(٣) فى ب: نقل.

(٤) ورد بعد هذه اللفظة بياض فى الأصل، وقد احدث هذا النقص خلافا فى الوزن.

(٥) فى الأصل: تغرتها. وفى ب: نقرتها.

(٦) فى ب، ج: سفجت.

(٧) فى ب: بزي.

(٨) فى ب، ج: إزراء.

(٩) فى ج: تحليل.

1 هصرت: جذبت وأمالت.

2 وطفاء: هى السحابة الدائمة المطر.

3 نهر الأبله: نهر يخرج من دجلة بقرب البصرة.

4 فرند سيف: هو ما يلمح فى صفحته من أثر تموج الضوء.

5 حلاء: هو الذى يكحل العين بالخلوء، والخلوء: ما يحك بين حجرين ليكتحل به.

6 رقشاء: هى الحية التى بها نقط سواد وبياض.

كأنه حين يهدى زرقه ^(١) وصفا
إذا شدون حمامات الأراك على
من كل ورقاء فى الأفنان صادحة
ورق تغنت بجنات رقين على
باكرتها فى سراة 2 من أصحابنا
تداعبوا ^(٥) بمعانى شعرهم فآدوا
من كل شيخ مجون فى شباب فتى
رقراق ^(٢) عين بوجه الأرض شهلاء 1
أغصانها فرأينا ^(٣) رقص هيفاء
بين الحدائق فى فيحاء زهراء
عيدانها (فما له فى) ^(٤) مغنى وغناء
لا ينطوون على حقد وشحناء
ود الأحبة فى ألفاظ أعداء
يقرى المجون بقلب غير فشاء ^(٦)

قلت: رأيت أبياتا لبعض المتقدمين فى سرحة 3 فأحببت أوردتها ^(٧) مع هذه وهى
هذه:

وسرحة برى بجد مهدلة 4
إذا الصبا نسمت والمزن يهضبها 5
تقيل فى ظلها بيضاء آنسة
أغصانها فى غدير ظل يرويهها
مشى النسيم على لين يناجيها
تكاد تنشرها لنا وتطويها

(١) فى ب، جـ فراق.

(٢) فى ب: زوقه.

(٣) فى ب، جـ: فترينا.

(٤) فى الأصل: فى الرفى. ويلاحظ أن هذا الشطر من البيت غير مستقيم الوزن.

(٥) فى الأصل: قد أعبوا. وفى ب: تدعبوا.

(٦) فى ب، جـ: نساء.

(٧) كذا وردت هذه اللفظة فى النسخ الخطية دون أن يسبقها حرف "أن" وهى لغة فاشية فى الحجاز يقولون: يريد يفعل، أى: يريد أن يفعل. وهى كثيرة فى كلام الإمام الشافعى رضى الله عنه.

1 شهلاء: يقال: عين شهلاء، إذا اختلط سوادها بزرقة.

2 سراة: سراة كل شيء: وسطه ومعظمه.

3 سرحة: هى الشجرة العظيمة الطويلة.

4 مهدلة: متدلية.

5 يهضبها: يبلها بلا شديدا.

سود ذوائبها بيض ترائبها حمر محاسرها ^(١) صفر تراقبها

ورأيت في تذكرة العلاء الكندى بخطه ^(٢) قال: كتب الأديب سراج الدين عمر
الوراق إلى مهذب الدين بن البرهان مع طبق عنب من داره بالروضة:

دع هجرا والتمر في ضربك الـ أمثال للقطن والراحل
فأعجب الأشياء إهداؤنا من عنب الكرم إلى الفاضل

فأجابه:

أخجلت أرياب الندى كلهم من قائل منهم ومن فاعل
فلا عدمناك فتى محسنا تحسن فى العاجل والآجل

وكتب إليه أيضا في المعنى:

أهديت لى عبا سر الفؤاد به (كأن آنيته إذ زانها) ^(٣) القدم 1
وغير بدع إذا أهديت لى عبا فإن دارك فيها الكرم والكرم

قال الإمام أبو حيان النحوى: صنع لنا القاضى علاء الدين ابن بنت الأعز طعاما
بمنزله بالروضة، فحضرته وكان معنا القاضى فخر الدين بن صدر الدين
المارابى ^(٤)، فرأينا ونحن بالمنزل ننظر إلى البحر شابا يسبح فى الماء، ثم خرج فالتطخ
بتراب من البر، فقال علاء الدين: لينظم كل منا فى هذا المعنى شيئا، فقعد كل منا
بمعزل، ولم يطلع على ما نظمه رفيقه، حتى تكمل ما نظمناه، وأخذ كل واحد ما

(١) فى ب، جـ: محاسدها. والمحاسر: جمع محسر، وهو ما تكشف عنه المرأة من مفاتها.

(٢) هذه اللفظة ليست فى الأصل.

(٣) جاء مكان ما بين القوسين فى الأصل: كأنه ابنة إذ زادها.

(٤) فى ب، جـ: المازانى.

1 القدم: بسكون الدال الشئ المصبوغ بحمرة مشبعة.

نظمه الآخر فكان ما نظمه (علاء الدين) ^(١):

ومترب لولا التراب بجسمه لم تبصر الأبصار منه منظرا ^(٢)
فكأنه بدر عليه سحابة والترب ليل من سناه أقمرا
ونظم فخر الدين:

ومترب تربت يدا ^(٣) من حازه كقضيّب ترب ضمخوه بعنبر
فكان طرته 1 وضوء جبينه ليل أظل ^(٤) على صباح أنور ^(٥)
ونظم أبو حيان:

ومترب قد ظن أن جماله سيصونه عنا بترب أعفر
فغدا يضمخه فزاد ملاحه ^(٦) إذ قد حوى ليلا بصبح أنور
فكأنما ^(٧) الجسم الصقيل بتربه كافورة لطخت بمسك أذفر 2

وقال الأديب جمال الدين بن نباتة شاعر عصره يتشوق إلى الروضة والنيل،
ويمدح ^(٨) السلطان الملك الناصر حسن بن الناصر محمد بن المنصور قلاوون رحمهم
الله تعالى:

-
- (١) ليست في الأصل.
(٢) في الأصل: مبصرا.
(٣) في ج: يداه
(٤) في ب، ج: أظلم.
(٥) في الأصل: النور.
(٦) في الأصل: قلاحة. وما أثبتناه يتفق مع المعنى.
(٧) في ج: فكان.
(٨) في الأصل: يمدح.
-

- 1 طرته: طرفه وحرفه.
2 بمسك أذفر: هو الجيد من المسك.

بدت فى رداء الشعر باسمه الثغر
ولو شئت قسمت الذوائب مقسما
وقبلتها مصرية حلوة اللمى 1
ويعذرني^(٢) من ليس يدرى صبابتي
ومن عجب الأشياء حلو ممنوع
وكم لائم فى حب ليلي إذا^(٣) اعرضت
وشيب رأسى خدها ومعنف
فيا قلب خنساء القوى وأدمعى
أرى الشمس منها فى العشاء منيرة
يذكرنى عهد الوفا ما نسيته
أما وقد ضاء^(٧) المشيب بمفرقى
وفارقت خد الغانيات وجفنها
وإنى لمشتاق إلى ظل روضة
لئن حثنى باب البريد إلى مصر

فعوذتها بالشمس والليل والفجر
بطيب ليال من ذوائبها عشر
أكرر فى تقييلها^(١) السكر المصرى
فأصرفه من حيث أدرى ولا يدرى
وأصبر عنه وهو حلو مع الصبر
وعنف^(٤) حتى^(٥) جانس الفخر بالفخر
وهذا رماد الشيب من ذلك الجمر
على مثلك العينان تجرى على صخر
ومن صدها عنى أرى النجم فى الظهر
ولكن تقضى الحال منه من^(٦) المر
فبالشيب لا بالطوع صرنا إلى الهجر
فجرحا على جرح وكسرا على كسر
على النيل أروى العيش فيها عن النضر
لقد حثنى باب الزيادة فى النذر^(٨)

(١) فى ب: قبييلها.

(٢) كذا وردت هذه اللفظة فى النسخ الخطية، وهى فى ديوان ابن نباتة: ويعذرني. أى: يلومنى. وهى أوفق بالسياق.

(٣) جاء مكان هذه اللفظة فى ب، ج: خنساء.

(٤) فى الأصل: وعنسق.

(٥) هذه اللفظة ليست فى الأصول الخطية وأثبتناها من ديوان ابن نباتة، ص ١٩٥.

(٦) فى ب، ج: فى.

(٧) فى الأصل: ضاق.

(٨) فى الأصل، ب: البدر.

1 اللمى: سمرة فى الشفة تستحسن.

فيغنى الورى فى الحالتين عن القطر
حلاوته سكب (وجنديه يجرى) ^(٢)
بسعدك يا سلطانها ساعيا يجرى
على كل مصر طاعة البر والبحر
وهل تجمع الأمصار إلى على مصر
شذا الذكر عنه فالسلام على الخضر
بأفواها حتما على أنفس الزخر ^(٤)
لنظم ثناياها عقود من الدر
عن الملك المصرى عن الحسن البصرى
بهذا وذا فى القلب حب وفى الصدر
ونحو علا لا نحو زيد ولا عمرو
وأزربلا وزر وعز بلا كبر
لبأس على فى سماح أبى بكر
وجاء فلا زالت له دولة الوتر
مواجهه ^(٦) المنصور مسترسل النصر
وأنت أجل البيت يا وارث الدهر
سعادته كالظهر يا واحد العصر

إلى مصر يحلو نيلها مخصب الثرى
ويصبح حلو الطعم ^(١) للمحل قاتل
ويجرى بإسعاد العباد فحبذا
لسلطان مصر الناصر بن محمد
تجمعت الأمصار فى مصر طاعة
سلام على إسكندر الوقت إن يفح
سلام ثغور الخلق تنفس فى الورى ^(٣)
على باب سلطان العباد كأنها
ملك روت أخباره سير التقى
له منزلا حسن وتحت مقامه
أماله ^(٥) ملك لا فلان ولا فل
فملك بلا جور وحكم بلا هوى
قضا عمر فى حلم عثمان جامعا
مضى الشفع من مرأى أبيه وجده
إلى ناصر من ناصر وكذا على
أجل بيوت الملك بيت قلاوون
فملكك حق واضح الصبح ^(٧) أشرقت

(٧) فى الأصل: الشمس. وما أثبتناه أوفق بسياق البيت.

(٢) فى الأصل: العر. وفى ب: المعرى.

(٢) فى الأصل: وجندته تجرى.

(٣) فى ب، ج: الثرى.

(٤) فى الأصل: الزجر.

(٥) فى ب، ج: أنا.

(٦) كذا بالنسخ الخطية. وفى ديوان ابن نباته: مدى جده. الديوان، ص ١٩٦.

مراد البرايا أن تدوم وإن ثووا
بصوتك أركان الشريعة شيدت
وخاض بها قوم تعدوا فقولوا
لك الله إما كسب حظ من الثنا
ليهنك ^(١) ما أحبته ^(٢) من حبيبه ^(٣)
ليهنك ^(٤) ما عمرته من معالم
ويعدحكم حسانها اليوم أوغدا
فأيامك الأعياد عائدة لمن
وكفك للمداح أيام ^(٥) عشرها
ودولتك الزهراء للوجود والسطا
ونصر على الأعدا ييادر رعيه
ويعرض عن كيد العدا لاحتقارهم
فأعداك هذا مس فى النوم رأسه
وكم لك فى داني الديار ونازح
يضمن ^(٧) بأحمال من التبر ^(٨) معشر
ملك التقى والعلم والبأس والندى

وميراثك الباقي إلى ذلك الحشر
وصينت ثغور كلها باسم الثغر
بها كل إنسان لديه من الخسر
تحوز وإما كسب حظ من الأجر
يابطال ما تجنى الجنايات من وزر
سيثنى على عما رهن أبو ذر
بدار البقا بعد الطويل من العمر
رجاك ومن عاداك بالفطر والنحر
وليلة من يسعى بها ^(٦) ليلة القدر
فبالفلك السعدى والفلك البشرى
فيسبق مجرى الخيل بالعسكر المجرى
بلا قاصد ماش ولا حائم صقر
وآخر قبل السيف مات من الذعر
غيوث عطاها يخلط السهل بالوعر
إذا اتصلت أحمال جودك من تبر
فمدح على مدح وشكر على شكر

(١) فى الأصل: ليهنيك.

(٢) فى ب، ج: جيته.

(٣) فى ب: حبه. وفى ج: جبيه.

(٤) فى الأصل: ليهنيك.

(٥) فى الأصل: أمام.

(٦) فى ب: لها.

(٧) فى الأصل: يصف.

(٨) كذا وردت هذه اللفظة فى النسخ الخطية. وهى فى ديوان ابن نباتة: التبن. وهو أوفق بالمعنى المراد.

تهن وكل الناس عاقبة روت
بها حملت عنك السقام بمصرها
فليس سقيما غير جسم^(١) مليحة
فأحسن بها للملك فى كل حالة
وأحسن بها حيث الهناء مسطر
عوافى إلا أنها قاهرة
فعافية الأجساد عند ذوى الهدى
هنيئا لسلطان البرية سيرة
تبيع^(٢) ولكن بالكلام نفائسا
وتبتاع لكن بالنفيس غواليا
وأحييت للأداب علما ومعلما
وجود دنانير سبقن^(٣) بمعجز
سبقن _ وإن لم يشتك _ الفقر بالغنى
كذلك أذهان الملوك بقية^(٤)
تأملت ما تعطى الملوك من النهى
أحقا أرانى فى مرامى عنانه^(٥)

حديث التهانى عن بشير وعن بشر
عيون المها بين الجزيرة والجسر
وليس عليلا غير ناسمة تسرى
بشائر عند السيف والعز والنصر
صحائفها عن كاتب السر والجهر
حكى^(٦) حالتها فى المسرة والقهر
وعافية الأطلال عند ذوى الكسر
مزهرة الأوراق بالأنجم الزهر
من المال يلقاها غدا^(٧) جمّة الوفر
من الحمد إلا أنه عاطر النشر
بنعماء تقرى بالفوائد (أو تقرى)^(٨)
ترينا بدور التّم فى أول الشهر
وقابلن _ إن لم نشتك _ الكسر بالجبر
ترى فيه مرآة الأمان فيستقرى
فعوذت فردا بالثلاث من الحجر
نباتا يحبى واكف المزن بالزهر

(١) فى ب، جـ: جفن.

(٢) فى ب، جـ: حكمت.

(٣) فى جـ: تباع.

(٤) فى ب، جـ: ذو.

(٥) فى ب، جـ: وتترى.

(٦) كأنها فى الأصل: ميين. وفى ب: ييين. وفى ديوان ابن نباتة: سبقن.

(٧) فى الأصل: بغنه. وفى ديوان ابن نباتة: نفية.

(٨) فى ب: عناية.

وأنشد أمداحا ^(١) تقول لمن أتت
وأفعل أفراسى كأحمر عسجد
وقد كنت فى قبر الخمول وها أنا
أزف (من الأمداح) ^(٢) كل مليحة
وما كان من نثر ونظم صنعته
فما برحت خدام وصفك مثلاً
مرجيك عن نجح ويمناك عن عطا
مدحتك بالشعرى وغيرك بالشعر
وقد كنت مشاء على قدمى تسرى
ملى بما قد قاله صاحب القبر
وإن جازت السبعين ناهدة بكر
لغيرك إلا مثل تجربة الفكر
تراك فتردى مسند الحمد والذكر
ورأيك عن سعد وملكك عن نصر

وقال ابن أبى حجلة فيما كتب به على دفاتر قاعة صلاح الدين الزفتاوى بمصر
مقابل الروضة:

بنيت على الساحة والرياح
وفقت الدور فى مصر لأنى
يزيل البحر حولى كل هم
ويبدى الريح لى منه دروعا
إذا افترجوا على الشراب منه
كأن حبابه البادى عليه
أقابل روضة فيها زهور
وسقفي ^(٣) كالرياض به دهان
وحزت الحسن من كل النواحي
حويت من التقى أهل الصلاح
كأن الماء ممزوج براح
ويصقلها فتلمع كالصفاح
سقيتهم من الماء القراح 1
عقود الدرعى جيد الرдах 2
تضوع كطيب أثواب الملاح
تبسم فيه عن ثغر الأقاح 3

(١) فى الأصل: مداحا.

(٢) فى ب، ج: بالأمداح.

(٣) فى الأصل: وسفى.

1 القراح: النقى الخالص

2 الرдах: يقال: امرأة رдах، أى: ضخمة الردف سمينة الأوراك.

3 الأقاح: هو فى الأصل نبت زهره أصفر أو أبيض. ويكثر تشبيه الأسنان بالأبيض منه.

وأرضى من رخام من رآه
وطالع سلمى أبدا سعيد
وطالع باذهنجى¹ كل حين
إذا هب الطياب^(١) به عشاء
وإن لام العذول على هواه
وقال يمدح صلاح الدين المذكور:

تزايد مثل البحر من قربكم أنسى
فكيف أخاف الآن نقص مسرة
وأقبلت الأيام بالنيل^(٢) والرخا
وجاء صلاح الدين والنيل مقبل^(٤)
إليك صلاح الدين قافيتي^(٥) التى
ولو لم أبت فى مصر نحوك مقلعا
وقال أيضا يصف بيتا على البحر:

وبها شبابيك ترى بعيونها
ومناظر تصغى إلى مر الصبا

يصرح فيه بالحسن الصراح
يزيد به سرورى وانشراحى
أريد القلب منه بالرياح
يطيب من العشاء إلى الصباح
فبعض القول يذهب فى الرياح

ويت من المقياس فى بسطة النفس
بمصر وهذا النيل قد زاد فى العرس
وزال^(٣) الذى تشكو الأراضى من اليبس
وحاسده المغبون فى الطرد والعكس
أنت^(٦) بثغر السن تبسم فى الطرس
قلعت من الدنيا وأبنائها^(٧) ضرسى

ما لاح من مصر إلى أسوان
فكانها الأذان فى الحيطان

(١) فى جـ: الطيبات.

(٢) فى ب، جـ: باللين.

(٣) فى ب: وجاء. وفى جـ: وزاد.

(٤) فى ب: مقبلا.

(٥) فى جـ: فاقتي.

(٦) فى الأصل، ب: أتيت.

(٧) فى ب: وأبياتها.

1 باذهنجى: الباذهنج: مسقط الهواء.

وعيون شاذ روانها لماجرت
طفح السرور على حتى إنه
أهوى خربير الماء فيه كلما
يجلو النسيم الهم فيه مجاليا ^(١)
ألف الصبا فيه الطياب فتارة
إن صفقت أمواج بجرته فكم
وكأنما الشختور فيه عقرب
وكأنما رجل ^(٢) الحمام إذا مشى
فمتى مررت بمرج ناديه ضحى
لو لم أبت والبان حول بنائه
كم لاح ^(٤) فيء الظل فوق الورد مث
والزهر في النارج حين يلوح مث
فجمعت بين البحر والإيوان وال
فتهن بالمجموع دام لك الهنا
وقال أيضا في قلعة:

قلاع قلعت الهم عنى بذكرها
لئن كان جوف الليل في مصر روضة

أمست تقول تعال صب عان
من عظم ما قد سرنى أبكاني
خر النسيم به على الأذقان
أو ما سمعت بصيقل الأذهان
يتفرقان به ويجتمعان
غنت حمائمه على العيدان
ينساب فوق الماء كالثعبان
في مرج ^(٣) طبع من المرجان
مرج الندى بحرين يلتقيان
وأبان فيه فضيلة للبان
ل الدرفى صحن من العقيان
ل الدر كالأقراط في الآذان
بستان والغزلان والميدان
فجميع ما تهواه في بستان

وإن طولت شوقى إليها قصورها
ففى كل قصر روضة وغديرها

(١) في ب: دائها. وفي ج: محايلا.

(٢) في الأصل: زجل. والرجل: الطائفة.

(٣) في ب: موجه.

(٤) في الأصل: فاح.

وقال أيضا فى بيت بدرالدين الخروبي قبالة المقياس:

تأمل فما مثلى على البحر بارز فكم طاب عندى للطياب هبوب
عيون شبائيكى (لحاظ لعاشق) ^(١) على كل عين للهواء رقيب

وقال ابن نباتة:

تقلدت من نعماك فى حال غربتى قلائد شتى من نوال ومن شعر
وأسكنتنى (بيتا على البحر) ^(٢) أرتجى مكافاته فى ألف بيت على بحر

وقال آخر:

إذا كنت فى مصر ولم تك ساكنا على نيلها العالى فما أنت فى مصر
وقال ابن أبى حجلة يمدح الخليفة أمير المؤمنين المعتضد بالله أبا الفتح أبابكر
ويذكر النيل وذلك فى سنة اثنتين وستين وسبع مائة:

إذا بت فى در المدامع خاليا ^(٣) علمت غرامى بالعقيق وحاليا
حكى خفقان البرق قلبى كأنما بىرق الحمى من لوعة الحب ما بيا
إذا لمعت نار البروق على الغضا أذابت عليه قلعة من فؤاديا
وإن لاح لى من أيمن الجزع بارق سللت على العذال ^(٤) سيفا يمانيا
خليلى كفا عن ملاهى فى الهوى فما لكما فى اللوم خير وماليا
ألم تعلمنا أن العذول على الهوى يزيد المعنى فى الغرام تماديا
وليل كيوم البحر طولاً وظلمة إذا ما دجى خفت الرقيب المداجيا

(١) فى ب، جـ: كألفاظ عاشق.

(٢) فى جـ: على البحر بيتا.

(٣) فى جـ: حاليا.

(٤) فى الأصل: الغزال.

إذا طار من جنح الظلام غرابه
سريت به والبرق يستل سيفه
كأن دموعي أنجم فيه قد سرت
سقى بقعة فيها العقيق سحائبها
منازل لو مرت يمين جنازتي
على أننى لو رمت فيها صباية
بها تربة العباس تبسم^(٣) نورها
سقاء بها الرضوان ربي فطالما
خليفته فينا سرى مثل سيره
ألم يبد فينا مع طلاقة وجهه
أتى مصر والنيل العظيم بفيضه
إذا ما بدا والماء فيها مكدر
يشنف سمع الأرض بالقرط دائما
يذكرني رشف الثغور أقاحها
فكم روضة ثمامها عرف طيبه
بفم^(٦) على خد الشقيق إذا غدا

رأيت به من أشهب الصبح بازيا^(١)
ويضرب من هام الجبال العواليا^(٢)
وخلت بياضا خلفها ومآقيا
إذا أقلعت ألفت دموعي المراسيا
لقال الصدا يا صاحبي قفا بيا
أعادت بها روحى إلى كما هيا
ويجلو من الظلماء مالان داجيا
غدا بكؤوس المزن للأرض ساقيا
فروى بسحب الجود من كان صاديا
مكارم عباسية وأياديا
يعم أقاصى أرضها والأدانيا
رأينا به عيش البرية صافيا
ويترك جيد الروض بالزهر حاليا
ولم أك ناسيها^(٤) ولا متناسيا
إذا ما أمنا عذله (بات واشيا)^(٥)
بروضته الفيحاء بالحال خاليا^(٧)

(١) في ب، جـ: باريا.

(٢) في ب، جـ: الأعلىيا.

(٣) تكررت لفظة (العباس) مكان هذه اللفظة في جـ.

(٤) في جـ: ناسيا.

(٥) جاء مكان ما بين القوسين في جـ: واليا.

(٦) في ب، جـ: نعم.

(٧) في جـ: حاليا.

فللنيل فى أرض الكروم^(١) تكرم
كأن ندى كف الخليفة لم يزل
فكم حركت عودا له الورق فى الضحى
أغانى^(٢) التهانى فيه إن عاز مطربا
إذا ضعفت يوما عن النظم همتى
لقد سار فينا سيرة عمرية
يروى بها أشجارها والدواليا^(٣)
يدير على الظمان منها سواقيا
كما حركت أيدي القيان الملاهي
بأصواتها تملئ عليه الأغانيا
وجدت القوى فى مدحه والقوافيا
أبو بكر الخاوى العلا والمعاليا

وقال ابن أبى حجلة أيضا وقد ركب مع الجمال بن نباتة فى شختور إلى الجيزة:

وفى لك الدهر يا شيخ القريض بما
وجزت للجيزة الفيحاء مصطبحا
يهوى بمصر بإنجاز^(٤) وإنجاح
والكوب ما بين ملاء وملاح

وقال أيضا وقد ركب بعض أصحابه فى البحر فلما عاد وجد داره احترقت:

ركبت^(٥) البحر يا مخدوم يوما
وأوحشت المنازل منك حتى
لتشرح صدر كل أخ شقيق
شكت فى قلبها نار الحريق

قال الصلاح الصفدى فى تذكرته ومن خطه نقلت: قال ناصر الدين حسن بن النقيب: كنا عند^(٦) سراج الدين الوراق بالروضة وجمال الدين أبو الحسين الجزار حاضر، ومعه شاب اسمه نجم راح إلى مصر، فقعده عندنا وطلب الرواح لحاجة عنت^(٧) له فقلت:

(١) فى جـ: الكرام.

(٢) جاء مكان هذه اللفظة فى ب: والزهر خاليا. وفى جـ: والزهر جاليا.

(٣) فى الأصل، جـ: بما فى.

(٤) فى جـ: بإنجاز.

(٥) فى الأصل: رأيت.

(٦) فى جـ: مع.

(٧) فى ب: عقت. وفى جـ: عفت.

يا جمال الدين ما أذ كي وما أيقظ فهمك
فلکم سددت بالفك رة في الأغراض سهمك
فأبن لي لائح^(١) الخد اق^(٢) ما عمرت سهمك
ما الذى عدى بك اليو م لمصر وأهمك
والذى يخطر لي أنذ ك قد أبصرت نجمك
بالذى^(٣) نشر أعلا مك فى الفضل وعلمك
فأزل وهمى أزال الله عن قلبك وهمك
لا تدعنى أيها الجز ار من يأكل لحمك
والذى يظهر لي أنذ ك قد أوترت سهمك
وقيح بك أن تجع مل مدحى لك ذمك
فأجاب ونحن جلوس بديها:

سیدی حاربت عبدا لم يزل يطلب سلمك
أنا والله ونجمى^(٤) نشتهى نأمن رجمك
ليت شعرى يا قوى الص لب هل سميتنى اسمك
والذى وفر^(٥) من لذ ة هذا الباب قسمك
لست فى النظم ولا الت سر ولا فى الباه خصمك
فاعتذر واستغفر الله ه فقد (فارقت اسمك)^(٦)

(١) فى الأصل: لاجما. وفى ب: لا ملجما.

(٢) فى ب: الحلاق.

(٣) فى ج: بالله الذى.

(٤) فى ج: وغيرى.

(٥) فى ب، ج: مر.

(٦) فى ب: قارفت إثمك

ونظم سراج الدين الوراق 1 أيضا:

حمدنا الأمير ابن النقيب لأنه أعادك بعد اليوم يقظان مفكرا
هراق بذكر النجم نومك عامدا كذا من يراعى النجم لا يطعم الكرى
وقال الصفدى: وكتب أبو الحسين الجزار إلى ناصر الدين بن النقيب:

قد هربنا من انزعاج الهواء وفرغنا لروضة ولما
ولورد مثل الخدود وزهر حملا عنك ^(١) عاطرا من ثناء
ولدينا إن شئت عود بخور ضمنا غيمه وعود غناء
وندامى إن كنت فيهم فحق الأر ض أن تزدرى بشهب السماء
فتفضل وكن جوابا كما لبي نداك العفاة قبل النداء
فأجاب:

خلنى من مدامة وغناء ونديم وروضة وغناء
ليس فى الجمع ^(٢) حظ ولكن أنت حظى ومنيتى واقتضائى
أنا لولاك ما تخطيت يوما بعد وخط المشيب 2 للندماء
لك يا صاحب الشذور من الأشعار صحت صناعة الكيمياء
ومينا بنور ألفاظك الغر ومن دونها نجوم السماء
وبأبياتك الأواهل ^(٣) بالمعنى الصحيحة قسمة فى البناء ^(٤)
ما تأخرت عنك إلا لعذر سوف يبيده العبد عن اللقاء

(١) فى ج: منك.

(٢) فى ب، ج: الجميع.

(٣) فى ج: بالأواهل.

(٤) فى ب: البقاء.

1 هو أبو حفص سراج الدين عمر بن محمد بن حسن الوراق، شاعر مصر فى عصره، كان كاتباً لواليتها الأمير يوسف بن سبا سلا، له ديوان شعر كبير، توفى سنة ٦٩٥ هـ.

2 وخط المشيب: سرعته ونشوه.

* ذكر موسم النيروز:

قال ابن رضوان: لما كان النيل هو السبب الأعظم^(١) في عمارة أرض مصر رأى قدماء المصريين وخاصة الذين كانوا على عهد قلدیانوس أن يجعلوا أول السنة في أول الخريف عند استكمال النيل، والنيروز هو أول السنة القبطية، وهو أول يوم من توت.

قال المقریزی: «وكان من مواسم هو المصريين قديما وحديثا إلى أن أبطله برفوق، وكان من عاداتهم فيه إيقاد النار والتراش بالماء، وكان الخليفة يجلس له في قصر اللؤلؤة على الخليج، وكان الأفضل يجلس في دار الملك التي بقرب المعزية على ساحل النيل، وأراد الخليفة الأمر في سنة ست عشرة وخمسة أن يحضر إليها في النيروز في المراكب على ما كان عليه الأفضل، فأعاد عليه المأمون أنه لا يمكن، فإن الأفضل لا يجري مجراه مجرى الخليفة».

ومعنى النيروز في اللسان السرياني: العيد. وسئل ابن عباس عن النيروز لم اتخذوه عيداً؟ فقال: إنه أول السنة المستأنفة، فكانوا يستحبون أن يتقدموا فيه على عهد ملوكهم بالظرف والهدايا فاتخذته الأعاجم سنة.

وفي (تاريخ ابن عساكر 1) من حديث ابن عباس في قوله تعالى: ﴿ قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمَ الزَّيْنَةِ وَأَنْ تُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى ﴾ 2 قال: وافق ذلك يوم النيروز.

وقال حمزة بن علي الأصبهاني في كتاب (أعياد الفرس): أول من اتخذ النيروز جمشيد، ويقال فيه جمشاد ملك الفرس الأول، ومعنى النيروز: اليوم الجديد.

وقال ابن وصيف شاه: أول من عمل النيروز بمصر: منارس بن منقاوس أحد ملوك القبط في الدهر القديم، فكانوا يقيمون سبعة أيام يأكلون ويشربون.

(١) ليست في جـ.

1 تاريخ دمشق (٦١/٦٥).

2 سورة طه، الآية ٥٩.

وقيل: إن سليمان عليه السلام أول من وضعه في اليوم الذي رجع إليه فيه خاتمه،
وقيل: هو اليوم الذي شفى فيه أيوب عليه السلام.

وقيل: إنه اليوم الذي أحى فيه السبط من بنى إسرائيل، وهم الذين خرجوا من
ديارهم وهم ألوف حذر الموت فقال لهم الله موتوا ثم أحياهم. فرفع أمرهم إلى
ملك فارس فقال: تبركوا بهذا اليوم، وليصب بعضكم على بعض الماء. (وكان ذلك
اليوم يوم النيروز فصارت سنة إلى اليوم)^(١)

وقيل: إنه اليوم الذي رمى فيه إبراهيم عليه السلام في النار.

وأخرج ابن عساكر في تاريخه 1 بسنده من طريق حماد بن سلمة عن محمد بن زياد
عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: كان اليوم الذي رد الله إلى سليمان بن داود عليه
السلام خاتمه يوم النيروز فجاء الشياطين بالتحف، وكان تحفة الخطاطيف أن جاءت
بالماء في مناقيرها فرشته بين يدي سليمان عليه السلام فأخذ الناس رش الماء من
ذلك اليوم.

وأخرج ابن عساكر 2: من طريق إسحق بن بشر، أخبرني مقاتل بن سليمان
نحوه وزاد قال: سمي ذلك اليوم نيروز، وذلك أنه وافق ذلك اليوم الذي يسمونه
النيروز، فكانت الملوك تتيمن بذلك اليوم واتخذوه عيداً، وكانوا يرشون الماء في ذلك
اليوم، ويهدون كفعل الخطاطيف ويتيمنون^(٢) بذلك.

وأخرج ابن اسحق من طريق إسحاق بن بشر، حدثني سفيان الثوري، قال:
بلغني أن سليمان بن داود يوم^(٣) رد الله عليه ملكه، أمر الريح أن تحمله فحملته
فانتهى إلى مفرق الطريق فاستقبله خطاف، فقال: أيها الملك إن لي عشا فيه بيضات

(١) ما بين القوسين ليس في الأصل.

(٢) في ب: ويستمعون. وفي ج: ويقيمون.

(٣) هذه اللفظة ليست بالأصل.

1 تاريخ دمشق (٢٢/٢٦١).

2 المرجع السابق (٢٢/٢٦٢).

قد حضنتهن وأنا أرجو إفراخى أيامى هذه فاعدل رحمك الله، فإنك إن مررت (بعش حطمته) ^(١)، فشفعه وترك ذلك الطريق. فانطلق الخطاف إلى البحر حين نزل سليمان فحمل ماء في منقاره فنضح بين يديه، فسأله أصحابه عن ذلك، فقال: إنه سألتني أن أعدل عن الطريق الذى فيه عشه، فهو يحمل الماء من البحر بمنقاره ينضحه بين يدي شكرالى 1.

قال إسحاق: وحدثني شيخ من خزاعة يقال له عبد الرحمن بن آدم، حدثني سعيد بن أبى عروبة بهذا الحديث، وزاد فيه: بأنه أتاه برجل جرادة فوضعه بين يدي سليمان، فقال له سليمان ما هذا. فقال: هدية لك. فقال سليمان: لقد شكر هذا، ومن لا يشكر المخلوق لا يشكر الخالق 2.

وكان فى الدولة الفاطمية للنيروز رسوم لأهل الدولة من الكسوة والذهب والورق والبطيخ والرمان والبسر وأقفاص التمر القوصى وأقفاص السفرجل والهريسة المعمولة من لحم الدجاج ولحم الضأن والبقر وخبز الرقاق لأربابها ^(٢)، كل بحسبه.

وكان مبلغ النقد فى ذلك اليوم من الذهب أربعة آلاف دينار، ومن الورق خمسة عشر ألف درهم، وأما الكسوة فعدة كثيرة من الشقق ^(٣) المذهبة والحريز، فأما الذهب والورق والكسوة فتختص بأهل القصور وأهل دار الوزارة والشيوخ والخواشى والخدام ورؤساء العشاريات، وليس لأحد من الأمراء فيها نصيب، وأما أصناف المأكول فيشمل الجميع ^(٤) من ذكر فى العين والكسوة وسائر الأمراء والأعيان ممن له تعلق فى الدولة.

(١) فى ب، جـ: بالعش حطمته بيضاتى. وفى تاريخ ابن عساكر (٢٢/٢٦١): بالعش حطمت بيضاتى.

(٢) فى الأصل: لأربابها.

(٣) فى الأصل: الشقنى. والشقق: جمع شقة، وهى ما شق مستطيلا من الثوب.

(٤) ليست فى ب، جـ.

1 أخرج هذا الأثر ابن عساكر فى تاريخ دمشق (٢٢/٢٦١).

2 أخرج هذا الأثر ابن عساكر فى تاريخ دمشق (٢٢/٢٦٢).

واستمر موسم النيروز بعد الدولة الفاطمية أيضا إلى سنة بضع وثمانين وسبعمائة
فمنعه برقوق، وهو إذ ذاك مدبر الدولة قبل أن يتسلطن من لعب النيروز، وتهدد من
لعبه بالعقوبة، فكف الناس عنه وبطل إلى الآن. وكانت أسواق القاهرة في أيام عمله
تعطل من البيع والشراء، ويقل فيه سعى الناس في الطرقات ويتعاطى الناس فيه من
اللهو واللعب والفسق والفجور ما يخرج عن الحد.

قال المقرئى: وكان قل ما انقضى يوم نيروز إلا وقتل فيه قتيل أو أكثر، فله
الحمد على إبطاله وما أحسن قول بعضهم:

كيف ابتهاجك بالنيروز يا سكنى وكل ما فيه يحكى وأحكيه
فتارة كلهيب النار فى كبدى وتارة كتوالى دمعتى فيه
وقال آخر:

نورز الناس ونورز ت ولكن بدموعى
وذكت^(١) نارهم والنا ر ما بين ضلوعى
وقال آخر:

ولما أتى النيروز يا غاية المنى وأنت على الإعراض والهجر والصد
بعثت بنار الشوق ليلا إلى الحشا فنورزت صبحا بالدموع على الحد
ودار الملك التى كان يحضر إليها الأفضل ابن أمير الجيوش يوم النيروز أنشأها
الأفضل فى سنة إحدى وخمسمائة بجوار المدرسة المعزية بمصر، وفيها يقول الأسعد
ابن المهذب بن ممتى:

حللت بدار الملك والنيل آخذ بأطرافها و الموج يوسعها ضربا
فخيلته قد غار لما وطئتها فأضحى يحرك^(٢) عند ذاك لها حربا

(١) فى الأصل: وذكرت. وما أثبتناه أوفق بالسياق.

(٢) مكان هذه اللفظة بياض بالأصل، جـ.

وكانت من أعظم المناظر، فلما قتل الأفضل صارت من أعظم متنزهات الخلفاء، وما زالت عظيمة إلى أن انقرضت الدولة فجعلها الملك الكامل دار متجر، ثم عملت في أيام الظاهر بيبرس دار وكالة.

وقال الصلاح الصفدي في كتابه (فض الحتام عن التورية والاستخدام): اعلم أن المتأخرين قد سلكوا في التضمين طريقا أبدعوا سلوكها ووضعوا الدر في سلوكها، وهو أن المتكلم منهم يأتي إلى البيت المشهور أو المثل السائر فيضمه نظمه أو نثره بلفظه، ويعطى له توطئة تقلب معناه الأول إلى المعنى الثانى الذى أراد، فيكتسى التضمين بذلك رونقا، ويستزيد بذلك طلاوة، وهو نوع يزيد سلامة ذوق وصحة فكر، كما كتب أبو الحسين الجزار في يوم نيروز:

كتبت بها فى يوم لهو وهامتى تمارس من أهواله ما تمارس
وعندى رجال للمجون ترحلت عمائمهم عن هامهم والطيالس
فللراح ما ذرت عليه جبوبها وللماء ما دارت عليه القلانس
مساحب 1من جر الرفاق على القنا وأضغاث أقطاع حمى ويابس
فانظر كيف نقل لفظة الراح من اسم الخمر فى الأصل من قول أبى نواس^(١) إلى جمع راحة، واهتدم من البيت الآخر ما اهتدم فى الموضوعين ليوافقه فيما اتفق قصده مما يجرى بين الناس فى النيروز. وقال الشريف جعفر العلوى المصرى المعروف بابن الماشطة فى يوم اتفق فيه العيد والنيروز:

أتى العيد والنوروز مجتمعا معا^(٢) وشملى (بمن أحبت)^(٣) غير جامع
فعيدت فى ثوب جديد من الضنا ونورزت مع صحبى بماء المدامع

(١) فى الأصل: فراس.

(٢) فى الأصل: بهم أحببته.

1 مساحب: جمع مسح، وهو مكان السحب.

(٣) ليست فى جـ.

ومن إنشاء ضياء الدين بن الأثير من رسالته فى التهئة بنىروز أو مهرجان، قال:
الهنا يحصل بنوروز السنة ومهرجانها، وليس ذلك إلا للاعتدال بحلول الشمس
فى برج حملها وبرج ميزانها، وبين هذين الفصلين مناسبة فى محاسن الآثار، فهذا من
حظ الأفواه وهذا من حظ الأبصار، غير أنها تفاخرا فى الفضائل، وأطلق كل منهما
لسانه فى بيان الشواهد وإقامة الدلائل فقال الربيع:

أنا المبشر بنطق الأتيار^(١)، واكتساء الأشجار، واستغناء الناس عن ثقل الديار،
والاصطلاء بالنار، وشمس تحل فى برج شرفها الذى هو لها خير الأبراج، وقد
جعلت سراجا للسماء وبه يزيد إضاءة ذلك السراج، ومن زمنى أبان الورد الذى هو
أحسن الأزمان، وريحانه أطيّب الريحان، وإذا ضاهاه غيره قيل والنجم والشجر
يسجدان، ولولا فضل ما مثلنى^(٢) الله بالمشور^(٣)، وأخرج فى المنابت من الظلمات إلى
النور، وجعلها سطورا فى قرطاس الأرض ولا يحسن القرطاس إلا بالسطور.

وأما الخريف فإنه قال:

أنا الذى أتى بذهاب السموم، وأيام الغيوم، واعتصار نبات (الكروم وتكاثر
ألوان المشروب والمطعموم، وفى يترقرق صفاء الأنهار، وتشبه القوابل بالأسحار)^(٤)،
وأيامى هى الذهبيات وتلك تشبه كريمة البحار، وقد سمانى قوم بربيع الناس،
ورأوا لباسى لا يخلق سريعا كما يسرع إلى غيرى إخالق اللباس، ومن ثمراتى ما لا
تزال أمهاته حوامل، وأوراقه نواضر غير ذوابل، وقد شبه بالمصاييح وشبهت أوراقه
بالسلاسل.

ولاشك أن هذه الأوصاف (من كلا الفصلين صادقة، وهى بشقاق الدعوى

(١) فى الأصل: الأشجار.

(٢) فى ب، ج: فضلنى.

(٣) فى الأصل: بالمشور. وفى ب: بالنشور. والمنشور: زهر ذورائحة ذكية.

(٤) ما بين القوسين ليس فى الأصل.

بينهما فارقة، ولو استفتيت في تفضيل أحدهما^(١) لما ملت في كفة الميزان، ولقلت إنهما في الماثلة كفرسى رهان.

* ذكر الموسم الذى كان بالروضة قديما ليلة الغطاس :

قال المسعودى فى مروج الذهب: ليلة الغطاس بمصر شأن عظيم عند أهلها، لا ينام الناس فيها، وهى ليلة إحدى عشرة من طوبة، ولقد حضرت سنة ثلاثين وثلاثمائة ليلة الغطاس بمصر، والإخشيد محمد بن طغج فى داره المعروفة بالمختار فى الجزيرة الراكبة على النيل، والنيل مطيف بها، وقد أمر فأسرج من جانب الجزيرة وجانب الفسطاط ألف مشعل غير ما أخرج أهل مصر من المشاعل والشمع. وقد حضر النيل فى تلك الليلة مئون الألوف من الناس من المسلمين والنصارى فى الزواريق، ومنهم فى الدور، ومنهم على الشطوط، كل بما يمكنه من المأكّل والمشارب والملابس وآلات الذهب والفضة والجواهر والملاهى والقصف، وهى أحسن ليلة تكون بمصر وأشملها سرورا، ولا تغلق فيها الدروب، ويغطس أكثرهم فى النيل ويزعمون أن ذلك أمان من المرض ونشرة¹ من الدواء.

وقال (المسبحى فى تاريخه)^(٢): فى سنة ثمان وثمانين وثلاثمائة كان غطاس النصارى، فضربت الخيام والمضارب فى عدة مواضع على شاطئ النيل وأوقدت المشاعل والشموع.

وقال: فى سنة خمس عشرة وأربعمائة فى ليلة الأربعاء رابع ذى القعدة كان غطاس النصارى. فنزل أمير المؤمنين الظاهر لإعزاز دين الله ابن الحاكم لقصر جده العزيز بالله بمصر لنظر الغطاس ومعه الحرم، ونودى أن لا يختلط المسلمون مع النصارى

(١) ما بين القوسين ليس فى ب، جـ.

(٢) ما بين القوسين ليس فى الأصل.

1 نشرة: هى رقية يعالج بها المريض ونحوه.

عند نزولهم إلى البحر في النيل، وضرب بدر الدولة الخادم الأسود متولى الشرطين خيمة عند الجسر وجلس فيها، وأمر الخليفة بأن توقد النار والمشاعل في الليل فكان به وقيد 1 كثير، وحضر الرهبان فقسسوا هناك طويلاً إلى أن غطسوا.

وقال ابن^(١) المأمون: كان من رسوم الدولة أنه يفرق على سائر الدولة ليلة الغطاس الترنج والنارنج والليمون وأطنان القصب والسّمك البورى برسوم مقررة لكل واحد من أرباب السيوف والأقلام.

قلت: وقد بطل هذا في سائر المنكرات التي بطلت والله الحمد، فجزى الله من أبطله خير الجزاء، فإن ذلك من شعار الكفر، وقد نهى عن حضور أعياد الكفر.

روى ابن يونس عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال: «اجتنبوا عيد اليهود والنصارى فإن السخط ينزل عليهم في مجامعهم».

وعن ابن عباس رضى الله عنه في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ﴾² قال: أعياد المشركين. فقليل له: أو ما هذا في الشهادة بالزور؟ فقال: إنما آية شهادة الزور ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولاً﴾³.

* ذكر البرزخ الذى بين النيل والبحر:

قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَحْجُورًا﴾⁴.

(١) هذه اللفظة ليست في ب، ج.

1 وقيد: الوقود.

2 سورة الفرقان، الآية ٧٢.

3 سورة الإسراء، الآية ٣٤. والخبر أورد نحوه ابن كثير في تفسيره (٣/ ٣٣٠).

4 سورة الفرقان، الآية ٥٣.

قال ابن أبي حاتم في تفسيره: حدثنا الحسين بن الحسين، حدثنا إبراهيم بن عبدالله الهروي، حدثنا حجاج، عن ابن جريج، عن مجاهد في قوله: ﴿وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا﴾ قال: حجازا لا يراه أحد لا يختلط العذب بالبحر.

قال: ابن جريج: ولم أجد بحرا عذبا إلا الأنهار العذاب تجوز فيه منها مثل الخيط الأبيض، فإذا رجعت لم ترجع طريقهما من البحر شىء.

قال: والنيل زعموا أنه ينصب في البحر فلم أجد في قول مجاهد العذب بالبحر، فلم أجد العذب إلا الأنهار. إسناده صحيح. أخرجه مختصرا ابن أبي شيبة وابن المنذر في تفسيريهما بدون قول ابن جريج.

[وأخرج ابن أبي حاتم من طريق عطية العوفى عن ابن عباس في الآية قال: يقول حجز أحدهما عن الآخر بأمره وقضائه وهو مثل قوله: ﴿وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا﴾^(١).

وأخرج ابن أبي حاتم عن الضحاك في الآية قال: جعل بينهما حاجزا من أمره، لا يسيل المالح على العذب ولا العذب على المالح.

وقال ابن المنذر في تفسيره: حدثنا موسى بن خلف، حدثنا شريك، عن سالم، عن سعيد بن جبير قال: البرزخ ما بين العذب والمالح.

فائدة: قال الأزرقى في تاريخ مكة: حدثنى جدى، حدثنا سعيد بن سالم، عن عثمان بن ساج قال: أخبرنى مقاتل، عن الضحاك بن مزاحم قال: بلغنى أن التضرع من ماء زمزم برأة من النفاق، وإن ماءها يذهب بالصداع، وأن الاطلاع^(٢) فيها يجلو البصر، وأنه سيأتى عليها زمان تكون أعذب من النيل والفرات، وأن الله تعالى يرفع

(١) ما بين المعقوفتين ليس فى جـ.

(٢) فى الأصل: الإطلاع.

1 سورة النمل، الآية ٦١.

2 المستدرک (٤٥٠٦).

المياه العذبة قبل يوم القيامة غير زمزم فتغور المياه غير زمزم، وتلقى الأرض ما فيها من ذهب وفضة.

وأخرج الحاكم في المستدرك¹ وصححه: عن عبدالله بن عمرو قال: للدجال آيات معلومات: إذا غارت العيون، ونزفت الأنهار، واصفر الرياح، وانتقلت مذبح وهمدان من العراق فنزلت قنسرين، فانتظروا الدجال غاديا أو رائحا.

* ذكر مفاخرة بين الروضة ومصر:

أنشأ الشريف صلاح الدين محمد بن أبى بكر الأسيوطى رحمه الله تعالى قال:
يقبل الأرض وينهى أنه ليس يخفى عن العلوم الكريمة، والألباب الكاملة
السليمة، أن النفس والروح للاسترواح، أشد طلبا من راحتها بالراح، وأن المملوك
قصد مصر لهذا فى بعض الأيام، وتنقل إلى الروضة متنزها من غير آثام، فملا العين
بما لهما من المحاسن، وبما خصتنا به وبذاك الماء العذب القراح^(١) الذى هو غير آسن،
ورأى أن كلا منهما بمعان تفردت، وبأوصاف غير ما شملها من الإطلاق دون
الأخرى قيدت، فاستنطق لسان حالهما، مفصحا عن أمرهما.

فقلت مصر: بسم الله تبركا لفظا ومعنى، (أنا القديمة مبنى)^(٢)، والذى^(٣) إذا
عدت أوصاف غيرى من البلدان فرادى جاءت محاسنى مثنى مثنى، لى سمعة فى
الجاهلية والإسلام، وإذا حل فى حال دخل دار الأمن بسلام، وشبه بعض السلف
خلق الدنيا بالطير وأنى الصدر، وحسبك هذا التشبيه رفعة فى القدر، فخرى على
البلاد كفخر العلماء على العباد، وذكرى فى كل ناد بين حاضر وباد، أنا نزهة النفوس
ومطلع البدور والشموس، وإذا بدا زمن الربيع فترانى كالعروس، وحبذا بساتينى
المفتنة بكل عصر طائل، ونيلى الجارى كالسكر المذاب للنائل، وأحسن بقول القائل:

(١) ليست فى ب، جـ. والقراح هو الخالص.

(٢) ما بين القوسين ليس فى ب، جـ.

(٣) فى ب، جـ: وأنا الذى.

١ المستدرك (٤ / ٥٠٦).

أرض مصر فتلك أرض من كل فن بها فنون
ونيلها العذب ذاك بحر ما نظرت مثله العيون

فقلت الروضة: الحمد لله على هذه المسرة، ثم الحمد لله الذى أظهر محاسنى
بشهادة الضره، وأقر كل لسان ممن رآنى بأننى لانشراح القلوب مقرة، أنا للجموع
رائضة^(١)، وبأنواع الفرح والخير فائضة، ولموج الحرث الذى مثل الجبال غائضة،
أزهارى بطيبتها تفوح، وبألوانها المعجبة تتبهرج وتلوح، (نعم أنا الجزيرة المستجدة،
وناهيك بالحسن الجديد)^(٢)، إذا فاخر ضد ضده، أنا العروس بالتحقيق فى زمن
الربيع، أنا زهرى الباسم الناسم وتلوينه البديع، أنا لساكنى من الوشاة والرقباء
والأعادى لاسيما فى أيام النيل حصن منيع، والله در القائل فلقد أجاد، وأبدع فيما
أعرب وأفاد:

زر الجزيرة وقت النيل فى السحر واغنم بها لذة الأصال والبكر
فللجزيرة بالنيل المقيم بها غنى عن المطر الجانى على الجدر
يا حبذا هى والبحر المحيط^(٣) بها كأنها هالة دارت على القمر
وحبذا صفة المقياس بارزة كمثل ردف له بالماء مؤتزر
وحبذا الروضة الغناء كم شبه فيها تقوم لجبرى على قدرى

فقلت مصر للروضة: الآن حصحص الحق ببيانه، وظهر بعد كتمانها، أسأت بهذه
المقابلة^(٤)، وكيف لك بالمطاولة، أنا فضلى مذكور، وصيتى غير منكور، القاطع
كالسيف عند أهل العلم مشهور، ذكرت فى أربعة وعشرين موضعا من التنزيل،

(١) فى الأصل: راققة.

(٢) جاء مكان ما بين القوسين فى الأصل: وأغصانى تتمايل طربا.

(٣) فى الأصل، ب: المقيم. وما أثبتناه أوفق بالمعنى.

(٤) فى ب، ج: المقالة.

منها أربعة صريحة 1 وباقية بتأويل 2، ووردت الأخبار بسندها في بصحة الأقاويل،
شهد الإجماع بفضل، ولى الآثار الجميلة والجامع العتيق 3 كعبة للمصل، وأنا مأوى
التنزيل من أبناء السبيل والعالم والصالح والمتولى، وكم للنزعة والتعب عندى من
زاوية، وكم فقير بالبحر وراوية، لطف أبنائى فوصفوا بالركة والصفاء، وتمازجوا
بحلاوتهم حب الوفا، فقل عنهم ما ليس فيه خفا.

حبذا الفسقاط من والدة جنبت أولادها در الجفا
قدا أتى^(١) النيل إليها كدرا فإذا مازج أهلها صفا

فقلت الروضة: تبرهن البرهان، وبان البيان، قال الله عز وجل: ﴿ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ ﴾ 4، وقال تعالى: ﴿ فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ ﴾ 5، وحسبى بهذا
دليلا إذا أكثر المكثرون، وإن لم أكن تلك فى المعنى والعيان، ففيه تشبيه
لى بأحسن الجنان، وهو من أقوى الدلائل على تفخيم الشأن. فإذا شهد بفضلك
الإجماع فأنا كذلك وأزيد عليك بالقياس، وعرفت على الحقيقة بالوفاء دونك
بلا إلباس، واشتهر افتخارى بالستر يوم الزينة 6 على العاصى وغيره بين

(١) هذه اللفظة ليست فى الأصل، جـ.

- 1 المرات الأربع التى ورد فيها ذكر مصر صراحة فى القرآن الكريم هى:
- قوله تعالى: ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَنْ تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا ﴾ سورة يونس، الآية ٨١.
- وقوله تعالى: ﴿ وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لَامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ ﴾ سورة يوسف، الآية ٢١.
- وقوله تعالى: ﴿ ادْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللَّهُ ءَامِنِينَ ﴾ سورة يوسف، الآية ٩٩.
- وقوله تعالى حكاية لقول فرعون: ﴿ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرَىٰ مِنْ تَحْتِي ﴾ سورة
الزخرف، الآية ٥١.
- 2 أورد السيوطى أكثر من عشرين موضعا ورد فيها ذكر مصر تأويلا فى القرآن الكريم. وانظر: حسن
المحاضرة (١/٦-٩).
- 3 الجامع العتيق: جامع عمرو بن العاص
- 4 سورة الروم، الآية ١٥.
- 5 سورة الشورى، الآية ٢٢.
- 6 يوم الزينة: هو ما يسمى بيوم وفاء النيل. والذى يصل فيه الماء إلى ستة عشر ذراعا، بأذرع عمود
المقياس بالروضة.

الناس، وإن كان لك جامع فى الزيادة، وآثار جميلة فكم لى بالأصابع أياذ أنا بها عيد وهى عادة، وطالما سعى سلطانك إلى بملايسك الفاخرة، وصالحك بسجادة^(١). وإن كان لك فخر بالزاوية والبحر فإن لى فخرين، بأنى روضة الطالبين، ومجمع البحرين، وأنت مأوى الفعلة^(٢)، والبيعة والسوقة، والمذمة بأهل الذمة والكنائس (وأهل الحانات)^(٣)، والخانات المطروقة، وأنا للكبراء والوزراء والملوك وأهل الطريقة، أتملى بلقاء البدر عند طلوعه وما تفوزين بنظرة منه إلا عند الغروب، وأين إقبال الحبيب من إعراض المحبوب، وأحظى بالشمس بكرة الندى وتصلين بها من الهجير إلى استحكام الغيوب. والعجب منك كم لك طاقة، ولا لك على هذا طاقة، وأعجب منه تقابلين طراوتى^(٤)، بالحراقة^١، وتلك النشافات عند الزلافة. فإن وصفت لك أيها المصر محاسن فليست إلا فى جنب أوصافى، وتأملى فما لبساتينك أغصان خلافى، وكأنها ناظرت الشام بزهراتى وفاصلتها بها، حتى كادت الجبهة تسجد لى بإذن ربها، فحبذا منازل منى نفح الشمال فيها شمول، لا بل الرياح الأربع على وجهها قبول، أصبح كل غصن من رياضى يمين وهو بنعمى الظل مقلدا، والنسيم يمشى على ذلك الروض مقيدا، والماء يتجعد تجعيد المبرد فلا عجب أن يجلو عن القلب الصدا. ذات^(٥) بحرين تعاضدا على دفع الهموم الخافية، ومدحت بما يعاب سوى به من مخامرة النسيم الواشى ومخالطة العين الصافية، قد مرج الله تعالى فى البحرين يلتقيان، وأخرج فى أعطاف الغصون من زهراتى اللؤلؤ والمرجان.

(١) هذه اللفظة ليست فى ب. وفى جـ: بسجادة.

(٢) فى الأصل: الغلفة.

(٣) ما بين القوسين ليس فى الأصل.

(٤) فى جـ: طلاوتى.

(٥) فى الأصل: دامت.

١ بالحراقة: الحراقة هى المركب التى كان يستخدمها السلطان أو من ينوب عنه فى الاحتفال بتخليق المقياس وكسر سد الخليج.

ذات وجهين فيهما خيم الجسد ر فأضحت بها القلوب تهيم
ذا يلي مصر فهو مصر وهذا يتولى وسيم فهو وسيم
فلج البحار يسبح نون وبفج القفار يسبح ريم
قد أعادت عصر التصابي صباها وأبادت فيها (الغوم الغيوم) ^(١)

فقال مصر: أنا مدينة الكسب والمعاش، وللمقيم بى إقامة حال ما عاش،
ومعدن التاجر والمتاجر وذوى الرياش، أنا مستودع نفائس الأموال، وحواصل
الأقوات والغلال، فساكنى يجمع بين نعيمى الدنيا والآخرة عاجلا ^(٢) (وفى المآل)،
وفى كل ربع من رباعى للأحبة مربع، ومخلص للمضطر فى بيوتى عند كل مطلع ^(٣)،
وفى كل ناحية منى للمتنزه مرتع، يكاد نهر المجرة يجرى بين يدى ربى وحماى،
والمشتري أن يبتاع ببرجه أدنى درجة من سنأى، فأنا على السعد ممدودة الرواق،
منظومة النطاق، تعود قاعاتى بالسبع الطباق، وكم من ذى ريم، عند البساتين
والبريم¹، ولا تنسى العاشق والمعشوق والرصد، وبركة الحبش التى لا ينكر حسنها
أحد.

بها ما تلذ العين من حسن منظر وما ترتضيه النفس من شهواتها
زمردة خضراء قد زين قرطها بلؤلؤة بيضاء من زهراتها

(١) فى الأصل: الغوم الغوم. وفى جـ: الغيوم الغوم.

(٢) ما بين القوسين ليس فى الأصل.

(٣) ليست فى جـ.

1 البساتين: اسم قرية كانت تقع قبلى بركة الحبش، وفيها مساكن وبساتين كثيرة، وكان بها جامع تقام فيه الجمعة.

و البريم: اسم متنزه على النيل.

أنت إلى ^(١) الهرم قريبة ^(٢)، وفريدة غريبة، وعدمت القوس 1 ففقد المشتري منك نصيبه، توقعين السالك في التعدى، أو الغرق والتردى، أو الخوض مع الخائضين، فدونه مهالك قبل وصوله للمطالب مع الرائضين، وما ثم مانع، يقتضى عدم الفرق بيننا إذ لا جامع.

فقال الروضة: إن كان بك غلال فكم بك من مغلول، وعلى تنفق الأموال وتروح الأرواح فلك الحاصل ولى المحصول، وأنا من الهرم بعيدة، وقد أقررت في هذه المعايعة بأنى طارئة المنشأ فى الحسن جديدة، و النضارة تشهد أننا ترملت، وبالخرائب والكيان تكونت، نواحيك للنواح، لأجساد بالقبور بغير أرواح. كم سبج سابع إلى أسرع من البرق، وقيم قطع بينى وبينك بالغرق، وكم ملك أراد الوصلة بيننا بجسر فما تجاسر، وأقدم طامعا فباء بالحسرة إذ انعكس أمره وتعاسر. وما بلغ أحد لك فى مناه، ولكن تصديت للجناية على ونسيت حماما يجنى لك منى فأنا على كل حالة مخصوصة بالجناه. إذا صفر منزل من منازلك فعندى آس وريبع، وإذا أتى جماد منك إلى عجب من حسنى البديع، مما بين سقاة جوار جلوس، وسواق جوارى تذهب البوس. وأدنى بقاعى هو المشتهى، وتناهيت فكان لى المنتهى، أمنح من قبض عليه اهم جامعا للمسرة وبسطه، ويكرمه ربيعى الزاهى إذا انطوى بأكدار الزمن فيفرش له بسطه، ونشرى 2 أينما سار نفح، مثل نور الغزالة 3 حيثما لاح سنح 4. وأنا الروضة الحسنة الانبساط، وحلى أزهارى البهجة أقرط،

(١) هذه اللفظة ليست فى ب.

(٢) فى ب: فزينة.

1 القوس: اسم منتزه بقى من القلعة التى بناها الصالح نجم الدين أيوب جنوبى جزيرة الروضة، وفى الافتخار بهذا المنتزه يقول شمس الدين النواجى:

مصر قالت دمشق لا
لو رأيت قوس روضتى
تفتخر قط باسمها
منه راحت بسهمها

2 ونشرى: النشر: الريح الطيبة.

3 الغزالة: المراد بها هنا الشمس.

4 سنح: هو من قولهم: سنح الطائر فهو سانح، إذا مر من مياسرك إلى ميامنك فولاك ميامنه. وكانت العرب تتيمن به.

والحال بى كأنه^(١)، حل بدار السلام أعنى الجنة، واتخذنى ملجأ فكدت أن أكون من طوارق الأيام جنة^(٢)، كيف أخذت حلى^(٣) التعدى على بالمناظرة، وعبت ما هو لى ولك محاسن بالمغايرة، وذاك هو النعمى الذى هو لنا بمنزلة الوسن من الجنون^(٤)، وتقربها الأعين كما تقربها العيون. وهو النيل الذى إذا أتى راق منظره، وشاقت من أمواجه وداراته أعكانه وسرره، وسقى مدة الأرض سقى الرحيق، وفاض منه كل^(٥) خليج يصل الأمن وإن كان بقطع الطريق، وأصبح أنا بمقياس فى الحسن غاية، وكرسى جبرى^(٦) له فى كل وصف آية، لئن كنت أنت الأس وأنا الزائدة، فأنا من عندى تعرف القاعدة، وما لنا نتقاذف ونحتال للسباب بحبائل الشرك، ونأبى إلا الإقلاع عما لنا فى السعة من المعنى المشترك، وإليه عاضد هذا الشاهد:

لعمرك ما مصر بمصر وإنما هى الجنة العليا لمن يتفكر
فأولادها الولدان والخور أهلها وروضتها الفردوس والنيل كوثر

فقال مصر هيهات هيهات، وأنشدت هذه الأبيات:

مصر لها صورة ومعنى وذكرها فى الورى يسير
وكل نعت يقال عنها فى جنب أوصافها يسير

فلما أبت مصر الإنصاف، واتصفت بهذه الأوصاف، انشت الروضة واسترجعت، وحمى حماها وتمنعت، وطلبت النصرة بحلول ركاب حكم، يعدل بينهما إذا حكم.

(١) فى الأصل، ب: كان.

(٢) فى ب: حنة.

(٣) فى الأصل: على.

(٤) فى ج: الجفون.

(٥) هذه اللفظة ليست فى الأصل.

(٦) فى ب، ج، جرى. وكرسى الجسر: هو رأس الجسر الذى كان يصل ساحل مصر بجزيرة الروضة.